رأي ابن خاتمة في الوباء

جرت عادة اهل كل علم في الغرب ان يرجعوا الى اصل العلوم التي يشتغلون بها للاحاطة بتدرجها ودرس تاريخ رقيها والوقوف على ابحاث من قبلهم من الرجال . وقد ظفرت خلال الوباء الذي انتقل في العام الماضي من مصر الى الشام بكتاب اسمهُ "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" تأليف العلامة ابي جعفر احمد بن خاتمة الاندلسي فاحببت ان احدث القراء ببعض ما قرأتهُ فيهِ لعلي بما في مقابلة الطب الحديث بالطب القديم من الفوائد الجمة التي لا ينكرها باحث في العلم منها معرفة ما انتهت اليهِ حالة الطب في ذلك الزمن وما يوافق منها القديمُ الحديثَ مثل مسألة ثياب الموبوئين وعدوى لابسيها ومسألة الفصد الذي ذكر المقتطف فائدتهُ في تخفيف الضغط عن القلب وبرء المصاب احيانًا على ما سيجيء ومنها الاطلاع على ما لعلماء الاندلس من العناية بكل شيء حتى ان مثل هذا الفاضل وكان معدودًا من الطبقة العالية في بلادهِ لم يستنكف من الانتساب للطب وكان يعنى بتمريض المرضى ومداواتهم ويعد هذه الصناعة شريفة مثل ما كان يدرس في الجامع الاعظم ببلدهِ ولا عجب فالطب كالفقهِ في الاعتبار كما صرح بذلك الغزالي واحزابهُ

اما المؤلف فقد ترجمهُ لسان الدين بن الخطيب في كتاب الاحاطة في اخبار غرناطة فقال : هذا الرجل صدر يشار اليهِ طالب متفنن مشارك قويّ الادراك سديد النظر قويّ الذهن موفَّر الادوات كثير الاجتهاد معين الطبع جيد القريحة بارع الخط ممتع المجالسة حسن الخلق جميل المعاشرة حسنة من حسنات الاندلس وطبقة في النظم والنثر بعيد المرقى في درجة الاجتهاد واخذه بطرق الاحسان عقد الشروط وكتب عن الولاة ببلدهِ وقعد للاقراء ببلدهِ مشكور السيرة محمود الطريقة في ذلك كلهِ

وقال وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثاني عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة . وقد ذكر المقري في نفح الطيب طرفًا صالحًا من كلام ابن خاتمة وترجمتهِ

سئل المصنف وضع مؤلَّفهِ سنة سبع واربعين وسبعمائة في خلال وباء ظهر في المريَّة احدى بلاد الاندلس قال وكان ظهورهُ في اول شهر ربيع الاول بموافقة اول شهر يونيه "فاستمرَّ تمامهُ فصل الربيع وجمع فصلي الصيف والخريف وطائفة من فصل الشتاء الى تاريخ كتب هذا وهو منتصف شهر ذي القعدة بموافقة شهر فبراير"

وقسم كتابهُ على عشر مسائل وجزَّأهُ على بضعة فصول ففي المسألة الاولى كلام على سبب

تسمية هذا المرض بالوافد. قال "فظاهر كلام الاطباء انها (اي الامراض) وان كان عنها موت فانها لا تعد وباء لان اسبابها متفرقة والامراض الكائنة عنها مختلفة بالنوع وكونها في موضع واحد ممّا هو بالاتفاق وان اطلق عليها وباء فبحكم الشبه الظاهر وعلى جهة التوسع والمجاز وهذا النوع من المرض هو احد نوعي الامراض التي سمّاها بقراط بالامراض الوافدة قال جالينوس وهي الامراض التي تعم كثيرًا من الناس في وقت واحد فمتى كانت مهلكة سميت موتانًا ومتى كانت سهلة خصت باسم المرض الوافد ومتى كانت خاصة ببلد دون بلد سميت بالامراض البادية وقد قلنا ان الموتان في اصل وضعهِ خاص بالبهائم لكن على ذلك جرت الترجمة

وفي المسألة الثانية قال ان للوباء اسبابًا خاصة واسبابًا عامة وسببهُ العام ينقسم الى قسمين قريب وبعيد فالقريب تغير الهواء المحيط بالانسان الذي فيهِ تنفسهُ وهذا التغير يكون في الكيف ويكون في الجوهر وشرح ذلك ثم قال ان هذا البخار لا يتقد فيهِ مصباح بل ينطفئ اذا هو أُسرج وأُدخل فيهِ من ساعتهِ واشد ما يستحيل الهواء الى التعفن والفساد اذا بلغ هذه الدرجة

ونسب السبب البعيد الى تغير الهواء من جهة اتصال الاشعة الفلكية والانوار السماوية والنُّصب العلوية وعلى التحقيق من قبل الامر الالهي الذي لم يحصل اسبابهُ للبشر تحصيلاً يركن اليهِ اذ الوقوف على حدود الاحكام النجومية لم يحصل بعد ونسبهُ الى تغير الهواء في جهة الزمان والوقت بان يتغير الفصل من فصول السنة عن كيفيتهِ الطبيعية الى ضدهِ وذلك كأن يكون الربيع باردًا يابسًا على طبيعة الخريف لعدم الامطار في الشتاء قبلهُ وهبوب الرياح الشمالية او يكون الصيف مستويًا لغزارة الامطار فيهِ وهبوب الرياح الجنوبية او يكون الخريف على طبيعة الربيع او الشتاء على طبيعة الصيف لعكس تلك الاسباب. ونسبهُ الى تغير الهواء في جهة المكان والموضع وما يتصل بهِ مدة وذلك بان ترتفع ابخرة فاسدة متعفنة من السباخ والبطائح المتغيرة المياه والخنادق والاحافير السرية الراكدة المواه والنبات والبقول المتعفنة واقذار الناس وفضلاتهم وجيف القتلى في الملاحم والدواب التي اصابها الموتان ونحو ذلك مما يحدث البخارات المتعفنة

وهنا ذكر كيف تدرج الوباء وانتقل الى المرية وانهُ حلّ اولاً في منازل الضعفاء والمساكين وذكر ان عدد وفياتهِ اذ ذاك كان دون وفيات تونس وتلمسان وبلنسية وانهُ هلك في جزيرة ميورقة في يوم واحد ١٠٠٢٥٢ . وخمّن من بقي من ناسها بعد الوباء بربع الجميع وكذلك كان الامر بسائر بلاد المسلمين والنصارى ثم قال ما لفظهُ :

"وقد اختلف في مبدإ هذا الحادث من اين ابتدأ ظهورهُ فذكر لي الثقة عن بعض تجار

النصارى القادمين علينا بالمرية ان ابتداءهُ كان ببلاد الخاد وبلاد الخاد بلسان العجم هي بلاد الصين على ما تلقيتهُ عن بعض الواردين من اهل سمرقند وكان ثقة صدوقاً . وبلاد الصين هي من اول المعمور من الارض في جهة المشرق وانهُ ما زال ينتشر من بلاد الخاد ويتصل بما والاها الى ان اتصل بعراق العجم وببر التركية . وذكر لي ايضاً عن آخرين من النصارى القادمين علينا انهُ بلغهم ان ابتداءهُ كان بارض الحبشة وانهُ انتشر من هنالك فيما يليهم من الاقطار حتى انتهى الى ديار مصر واتصل بالشام . واختلاف هذا النقل يدل على ان هذا الحادث عام لجميع الاقاليم وكافة الاقطار

"وسبب اختلاف النقل والله اعلم انهُ لما ظهر بجهة في الجهات التي هي اوائل المعمور ظن ناقلها ان مبدأ هذا الحادث منها وانتشر الخبر بذلك ثم ترادفت الاخبار بنزوله بحصن قنا من معاقل الجنويين وهو الذي كان محاصرًا في التاريخ القريب قرطبة (كذا) بجند المسلمين من الترك والروم ثم بارض بيره وبالقسطنطينية العظمى وجزر الرومانية من سواحل البحر الرومي وبلاد جنوه وارض افرنسه آخر ريف الاندلس فسهل بلاد ارغون وبرطونه وبلنسية وغيرها وعمَّ اكثر مملكة قشتالة حتى انتهى الى اشبيلية من اقصى المغرب واتصل مع ذلك بجزر البحر الرومي بجزيرة صقلية وسردانية وميورقة وبلنسية وانعطف على سواحل العدوة وبلادها من ارض افريقية الى ما يلي المغرب"

وتكلم في المسألة الثالثة على اختصاص الوباء قومًا دون آخرين على قرب الجوار فاجاب عن ذلك بانهُ يتفق من وجه وهو كالاستعداد ويختلف من وجه آخر وهو الخصوصيَّة وان البلاد ليست احوالها متفقة من كل الجهات فتختلف من جهة قربها وبعدها من البحر ومن جهة اوضاعها ومن قبل اماكنها في السهولة والحزونة ومن قبل مآكلها ومشاربها . وشرح ذلك شرحاً مستوفى يصح ان يتخذ دستورًا في حفظ الصحة في كل زمان ومكان وقال ان المرية من المدن الساحلية التي تستعد للوباء اكثر من غيرها ووصف مركز تلك المدينة ومآكلها ومشاربها وصفاً لم يبق مجالاً لواصف

ثم قال" اعلم ان الناس ليسوا على طبيعة واحدة ولا مزاج واحد ولا احوالهم في مطاعمهم ومشاربهم وتحفظهم وتفريطهم على وتيرة واحدة بل أمورهم في ذلك كلهِ مختلفة جدًّا فمن كانت الحرارة والرطوبة غالبتين على مزاجهِ وهو في سن الشبيبة وكان بطابعهِ نهماً مسترسلاً في شهواتهِ كثير التملي من الطعام والنوم عليهِ لا يبالي باختيار مأكول ولا مشروب ولا بادخال طعام على طعام واكثر من استعمال المطاعم الرديئة السريعة الاستحالة ولم يُعنَ بحفظ صحتهِ ولا النظر

لنفسهِ فان استعداده لنزول هذا المرض بهِ يكون اعظم له وانفعاله عن هذا الحادث الحال اتم ولم يلبث ان يحل بهِ ويشمل ضرره اهل بيتهِ ومساكنهُ لسيرهم بسيرتهِ وذهابهم على مهيعتهِ. فقلما اجتمع اهل بيت وتخالفت طبائعهم وسيرهم . ولو فرضنا لعلةٍ انها تختلف فان من نزل بهِ منهم هذا المرض لتمام استعدادهِ يؤذي غيره ويسري اليهِ ضرره"

وافاض المصنف في المسألة الرابعة المتعلقة بعدواه فقال " الظاهر الذى لا خفاء بهِ ولا غطاء عليهِ ان هذا الداء يسري شره ويتعدى ضره شهدت بذلك العادة واحكتهُ التجربة فما من صحيح يلابس مريضاً ويطيل ملابستهُ في الحادث الأ ويتطرق اليهِ اذايتهُ ويصيبهُ مثل مرضهِ عادة غالبة اجراها الله تعالى". ثم قال " ولقد شهدت اهل سوق الخلق بالمرية الذين يباعون بها ملابس الموتى وفرشهم مات اكثرهم ولم يسلم منهم ولا من الذين خلفوهم الى الآن الّا الاقل وغيرهم من ارباب الاسواق حالهم كحال سائر الناس. واطلعت في حال البلدان التي حرص اهلها على ان لا يدخل اليهم احد من اهل بلاد الوباء وحافظوا على ذلك ان استصحبوا السلامة زماناً حتى غُلبوا على ذلك . وان اكثر اهل الحصون التي تلي المرية ونزل بها هذا الحادث ليؤرخون زمن نزولهِ بهم بقدوم فلان او فلانة عليهم من بلاد الوباء وموتهِ بين اظهرهم ولهم في التحفظ من ذلك والتورط فيهِ حكايات تواترت بانتشارها فلا معنى لانكارها "

وانكفأ المؤلف في المسالة الخامسة يبين كيفية التحفظ والاحتراز من الوباء فحصر الامور التي تدعو اليها حاجة الانسان في بقاء حياتهِ في ستة اقسام اولها الهواء المحيط بالانسان وما يرجع اليهِ وثانيها الحركة والسكون وثالثها الاطعمة والاشربة ورابعها النوم واليقظة وخامسها الاستفراغ والاحتقان وسادسها الاعراض النفسانية وفسر كلاً من هذه الانواع بما معناه : فاصلاح الهواء يكون باتخاذ البيوت الشمالية وفرشها بالرياحين الباردة ومسح الوجه والاطراف بذلك والمواظبة على شمهِ وشم الاترج والليم والازهار الباردة كالورد والبنفسج والترنجبين بالصندل مع يسير من العود الرطب ويحذر التعرض للشمس والسموم وموقد النيران وما يشعل حرارة الابدان . وينبغي ان يمال الى السكون ما ساعد الامكان . واصلح الاطعمة والشراب ما نشأ الانسان عليهِ من البر والشعير اذا حسن اختيارها وان كان يتناول الذرة فالاصلح الانتقال الى الشعير ومن الاطعمة حسو من فتيت خبز البر وطبيخ الارز الرقيق واصلح اللحوم ان استعملت ودعت الحاجة اليها لحوم الفتيان من الدجاج والحجل ولحوم الحملان ورضيع البقر يعصر عليها خل الليمون او خل الحصرم ويستعمل بيض الدجاج النيمبرشت وتستعمل البقول المزورات واصلح الفواكه الكمثرى والرمان الحامض والموز والاجاص على خلاء المعدة واصلح المياه ما عذب طعمهُ

وصفا وخف وزنهُ وانحدرت جريتهُ من ماء العيون وما قرب من ذلك فصلاحيتهُ بحسب قربهِ ولا بأس باستعمال ماء الشعير المحكم وتناول شيء من شراب السكنجبين وشراب التفاح ممزوجين بالماء كل صباح على الريق وكذلك شراب الرمان والسفرجل والحصرم وربوبها وشراب الليم وحماض الاترج ونحو ذلك لما يكسر سورة الدم . واصلح النوم ما كان ليلاً على المعتاد ولا بأس بهِ نهاراً في الصيف وليعدل بهِ في الصيف الى الاماكن الشمالية الندية التي تخترقها الرياح . وان تصرف العناية الى تسهيل الطبع دائماً ووصف لها كثيراً من الاشربة المباحة ووصف القيء لمن اعتادهُ ورأى ان الحجامة هي النكتة في حفظ الصحة عند حلول هذا الحادث. ورأى النفع في الفصادة قال وكلما توفرت الموجبات في المتطببين عندهُ واحتاجت حالتهم للدم اطلقة لهم ولما الف الناس الانتفاع بهِ صاروا يتصدون من تلقاء انفسهم . واصلح الاستحمام ما كان في ديماس معتدل الهواء بماء عذب فاتر بحيث يستلذ صبهُ على الجسد ولا تطال مدتهُ . واصلح الاعراض النفسانية التعرض للمسرات والافراح ويستدعى ذلك بما امكن في الامور المباحة ومجالسة من تبتهج النفس بحديثهِ ومطالعة الكتب وليحذر التعرض للغمّ واتعب الناس في هذه النازلة ارباب العقول واروحهم البُله واصحاب الفراغ ويجتنب ما يعود على النفس بروع او فزع او انزعاج . وختم هذا الباب بقولهِ انهُ لا ينبغي للعبد ان يفرط فيما انعم الله بهِ عليهِ من العلم والعمل الكفيلين بمصالح الدنيا والآخرة ولا ينبغي للعبد ان يحل يدهُ من التوكل طرفة عين فلا يكون توكلهُ على الله تعالى سبحانهُ الاّ بعد استفراغ جهدهِ في التحفظ والاحتراز وهذه حقيقة العبودية

وبسط في المسألة السادسة علاج الوباء الذي عرف الى عصرهِ " بحسب ما اعطاهُ العلم وشهدت لهُ التجربة ومحنةُ المعاناة والممارسة " ووصف علاجهُ قبل تمكنهِ وعلاجهُ بعد ذلك واتى على مشاهداتهِ في اناس لا يأخذهم الحصر اثر فيهم إطلاق الدم . قال واما اذا استحكم المرض فالمداواة في الغالب قليلة الجدوى . وقسم الطواعين الى ثلاثة انواع وذكر اعراضها وتشخيصها وعلاجها . وهنا انتهى القسم الطبي من الكتاب وبدأ القسم الديني

بعد ان ذكر ابن خاتمة ما تقدمت الاشارة اليهِ من القوانين الطبيَّة بادب بادٍ للعيان اثرهُ ودين لا حشو فيهِ ولا شوب عليهِ انشأ يبرهن على الاخذ بذلك من وجهة دينيَّة فقال ما محصلهُ : لاجدال بين الائمة في جواز التداوي عند نزول الداء ويدل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع ثم فصَّل ذلك تفصيلاً واستند في النقل الى ثقات المؤرخين مثل مروان بن حيَّان وابي الفرج الجوزي

وعاد في المسألة الثامنة يتوسع في شرح النهي عن القدوم الى ارض الوباء او الخروج عنها فرارًا منهُ وذكر قصة عمر بن الخطاب لما رجع بجيشهِ من سُرَغ احدى بلاد الشام وقد بلغهُ وقوع الوباء فيها وبعد ان اورد نصوص العلماء في هذا المعنى من "الاخذ بالحذر والحزم الذي امرنا الله تعالى بهِ وطلب الاسباب التي هي سوابق القدر واسرار القضاء كما امرنا باتخاذ الحصن من العدو وتجنب المخاوف والمهالك" انتهى الى المسألة التاسعة وهي كالمسألتين السالفتين في لزوم الوقاية وتدبير الصحة عملاً بما رسمتهُ الشريعة فذكر ما ورد في الحديث (لا عدوى ولا طيَرة ولا صَفَر ولا هامَة) وحديث (لا يورِدْ ممرضٌ على مُصِحٍ)وصرّح ان لا تعارض بينهما[1]

وخلص في خاتمة الكتاب اي في المسألة العاشرة الى الاجابة عن كيفية الجمع بين حديث لا عدوى وحديث النهي عن القدوم على ارض الطاعون او الخروج عنها فرارًا منهُ وغيرها من الاحاديث مثل حديث المرأة التي اتت الشارع الاعظم فقالت يا رسول الله دارٌ سكناها والعدد كثير والمال وافر فقلّ العدد وذهب المال فقال دعوها ذميمة . وحديث العرنيين الذين استوخموا المدينة اذ قالوا يا نبيّ الله انَّا كنا اهل ضَرع وشكوا اليهِ بانهم استوخموا المدينة فامر لهم بذَوْد وراعٍ واذن لهم في الخروج عنها . كل ذلك على وجه يرتضيهِ علماء العقل والنقل

هذا ما ساعدت المكنة على اقتباسهِ من هذا التأليف النفيس ولم ارَ لمؤلفهِ ما ينتقد عليهِ في الفاظهِ ومعانيهِ بحسب ذوق اهل العصر الحاضر ولم اشبههُ الاّ بعالم عامل عاقل يكتب الآن في صميم قارة اوربا . والنسخة التي امامي تقع في مائة وخمسين صحيفة منصفة القطع فيها شيءٌ من التحريف ربما يهتدى الى حقيقتهِ وقد كتب في آخرها (قابلها وصححها بقدر الامكان وتم ذلك في ليلة الخميس رابع رجب سنة ٩٩٥ عليُّ بن غانم المقدسي) وهو عالم معروف . وبلغني ان بالقدس نسخة اخرى من هذا الكتاب ورأيت بعد تحرير هذه الرسالة مقالة لبعض علماء تونس من اهل عصرنا ينقل فيها عن هذا الكتاب مما يظهر ان نسخهُ كثيرة . وحبذا لو تصدت احدى المطابع لنشرهِ تعميمًا لفائدتهِ

دمشق محمد كرد علي

(١) قال الامام النووي جامعًا بين حديث لا عدوى وحديث لا يورد ممرض على مصح قال جمهور العلماء يجب الجمع بين هذين الحديثين وهما صحيحان قالوا وطريق الجمع ان حديث لا عدوى المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمهُ وتعتقدهُ ان المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالى واما حديث لا يورد ممرض على مصح فارشد فيهِ الى مجانبة ما يحصل الضرر عندهُ في العادة بفعل الله تعالى وقدرهِ فنفى في الحديث الاول العدوى بطبعها ولم ينفِ حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالى وفعلهِ وارشد في الثاني الى الاحتراز مما يحصل عندهُ الضرر بفعل الله وارادتهِ وقدرتهِ فهذا الذي ذكرناهُ من تصحيح الحديثين والجمع بينهما هو الصواب الذي عليهِ جمهور العلماء ويتعين المصير اليهِ